الفكر المكافح في مواجهة ايديولوجيا التعايش

د. أحمد البرقاوي

حين يدور الفكر في حقل التّاريخ، باحثاً عن جهاز مفهومي يواجه مسألة المصير، فإنّه ـ في هذه الحال ـ لا يستطيع فكاكاً عن السّياسة، بوصف الأخيرة ممارسةً عمليّة تحاول أن تحقّق منظومةَ أفكار نشأتْ وتطوّرتْ في علاقة حميمة مع العالم.

وإذا كانت الممارسةُ السياسيّة تُنتج، بالضرورة، مبرّراتِ فعلها، فإنّها سرعان ما تغدو خاضعةً، بهذا الشّكل أو ذاك، لمنظومة الأفكار تلك. غير أنّ تناقضاً بين حقل السّياسة وحقل الإيديولوجيا لابدّ وأن يفضي إلى درجة من الانزياح تفرض، بالضّرورة، البحثَ عن حقل آخر من مفاهيم إيديولوجيّة؛ فتبدو الممارسةُ السيّاسيّة، إذّاك، تعبيراً عن فكر إيديولوجي جديد، كي يكون هناك معنى لهذه الممارسة.

وبالتالي فإنّ تحوّل الفكر السّياسي عن الممارسة السّياسيّة لا ينجب فهماً لأيّ طرفٍ منهما. وبالمقابل فإنّ الكفاح الفكري ـ الإيديولوجي، بمعزل عن الكفاح السّياسي، ليس إلاّ مظهراً من مظاهر العجز التّاريخي.

وتأسيساً على ذلك، فإنّ البحث عن تكوّن منظومة المفاهيم التي تشكّل خطاباً ينطوي على درجة من التماسك النظري، لن يكون ممكناً إلاّ بردّه إلى حقل الممارسة: أي التّاريخ..

فمفهوم «التحرير»، الذي يعني تحريرَ فلسطين من اليهود المحتلّين، لا معنى له إلاّ في شروط تكوّنه، كتعبير عن ممارسة لا تتحدّد بإخفاقها أو نجاحها. إنّه مفهوم لا يُفهم بذاته، بل في منظومة من المفاهيم التي أسّست له. وبمعنى آخر، فإنّ مفهوم تحرير فلسطين ينطوي، بالضّرورة، على تصوّرٍ شامل لجملة من العلاقات والترابطات المتعلّقة بالصّراع العربي ـ الصهيوني، وطريقة التعامل معه. ذلك أنّ الانطلاق من واقعة أنّ فلسطين أرضٌ عربيّة، بالمعنى التّاريخي الماضي والرّاهن، وأنّها سُلختْ عن جسد الأمّة، بفعل حركة استعماريّة استيطانيّة إجلائيّة وبقوّة السّلاح والسّيادة الإمبرياليّة ـ الاستعماريّة على العالم غير الأوروبي، يحدّد، بالضّرورة، وعلى نحو منطقي، المفهومَ المواجه... ألا وهو مفهوم التحرير.

ولمّا كان التّاريخ لا يُواجَه بِسلاحِ المنطق، بل بمنطق السلاح، فقد نشأت الحركة الفدائيّة الفلسطينيّة كثورةٍ تسعى نحو تصحيح خطأ تاريخي. إذاً، مفهوم التحرير هو ثمرة واقع اتّسم بالتناقض العملي، ثمّ تجسّد في ممارسة عمليّة. فتعيُّنُهُ يأخذ أشكالاً متنوّعة، إن على مستوى الممارسة الثقافيّة أو السياسيّة، أو مستوى الناحية العمليّة. وإنْ حدّدنا مفهومَ التحرير عن طريق السّلب، قلنا: أنْ لا صلح مع عدوٍّ إجلائي استيطاني عنصري؛ لا مساومة حول الأرض؛ ليس هناك إمكانيّة للتعايش مع اليهود الذين يشكّلون دولةً عسكريّة بامتياز.

من هنا نفهم أسماء حركات المقاومة الفلسطينيّة: «الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين»، «حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)»، «طلائع حرب التّحرير الشعبيّة»، «الجبهة العربيّة لتحرير فلسطين»، «جبهة التحرير الفلسطينيّة»... إلخ. وليس الميثاق الوطني الفلسطيني إلاّ التعبير النظري السّياسي عن فكرة التحرير.

وفي لحظة من لحظات التّاريخ يجري فيها التّطابق بين الممارسة والنظريّة ـ أو الفكر، فإنّ أحداً لا يسأل عن درجة هذا التطابق. وفي اللّحظة التي يشْجر فيها الاختلافُ بينهما، فإنّ لحظة أخرى من التّاريخ تبدأ بشقّ طريقها معبِّرة عن نفسها، فكراً وممارسة.

في لحظة أولى، يبرز التناقض بين منظومة الأفكار والسلوك العملي. فلأنّ الأفكار تتمكّن، غالباً، من الذّهن، فهي بطيئة التلاؤم مع اللّحظة الجديدة، فيُحتفظ بها، بدواعي الوفاء لها، وبدواعي الإبقاء على اللّحمة بين النّاس. وبالمقابل تجري عمليّة البحث عن مفاهيم تبرّر هذا التناقض، ساعية للتأكيد النظري على أنْ لا تناقض بين ما هو ثابت وجوهري وبين الممارسة المرحليّة والبحث عن

مفاهيم جديدة... كلّ هذا من أجل تبرير هذه الممارسة المرحليّة. غير أنّ حقيقة الأمر لا تعدو كونه مرحلة كاملة تسعى إلى إقامة قطيعة مع أخرى سابقة عليها.

ففي مرحلة التناقض المتعيّن حاليّاً بين مشروعين لكلّ منهما حدوده، أقصد المشروع العربي ـ الفلسطيني، والمشروع الصهيوني اليهودي، فإنّ السّعي قائم لحلّه حلاً غير صراعي. من هنا طفا على السّطح مشروعُ الحوار السلمي مع العدوّ، بوصفه المشروعَ الوحيد لدى عددٍ من الأطراف المشاركة، أصلاً، في الصّراع. وهنا يجب أن نميّز بين الحوار السّلمي والسّلام المنشود. فقبل أن أعيّن مفهوم السّلام، تجدر الإشارة إلى أنّ السّلام ليس مشروطاً بالحوار السّلمي؛ ذلك أنّه قد يتحقّق عن طريق آخر، صفتهُ الأساسيّةُ: الكفاح. أمّا الحوار السّلمي فإنّه يحدّد، سلفاً، نوعاً محدّداً من السّلام.

أعود الآن إلى جهاز المفاهيم، الذي يُسند ما أسمّيه «أيديولوجيا التعايش». و«التعايش»، بحدّ ذاته، هو أحد أهمّ مفاهيم هذا الجهاز.

فالتعايش مفهوم يحيل، مباشرة، على التسليم المسبق بأنّ هناك شعبين يتنازعان على أرض مشتركة بينهما هي فلسطين: شعباً فلسطينيّاً، وشعباً يهوديّاً؛ وأنّ الصّراع بينهما لن يفضي إلى انتصار أحد الطرفين: فلا القوّة العسكريّة الصهيونيّة كانت قادرة على إلغاء الشعب العربي الفلسطيني، ولا الثّورة الفلسطينيّة أو المواجهة العربيّة كانتا قادرتيْن على إزالة إسرائيل. إذّاك ـ وبحسب مفهوم التعايش ـ تغدو المواجهة بين الطرفين بلا معنى، لأنّها بلا نتيجة. وإذاً، فما لم تستطع القوّة أن تحقّقه، فلابدّ من صيغة يحقّقها الحوار: صيغةِ تعايشٍ بين طرفي الصّراع.

صيغة التعايش ليست حلاً للصّراع، لأنّ هذه الصيغة ذاتها محكومة بمنطق القوّة!

لكنّ الحوار يقوم بين طرفين غير متكافئين. ولهذا فإنّ صيغة التعايش ذاتها محكومةٌ بمنطق القوّة. وبهذا المعنى فإنّ منطق القوّة، الذي رُفض من طرف دعاة هذه الصّيغة بدواعي عدم قدرته على حلّ الصّراع، يعود ليحكم طريقة الحوار ذاته. وهنا يتحدّد طرفا الحوار: بأنّ الأوّل (إسرائيل) يمتلك منطق السّلاح؛ وأمّا الطّرف الآخر فلا يملك سوى سلاح المنطق.

في هذه الحالة، يبرز مفهوم جديد في أيديولوجيا التعايش، ألا وهو مفهوم «الواقعيّة».

مفهوم الواقعيّة، المستخدم حاليّاً، يستند، بالأساس إلى الإقرار بعدم التكافؤ بين القوّتين المتصارعتين، كما يبدو لأكثر من منظّر سياسي للحوار السّلمي. وينشأ مفهوم الواقعيّة كتعبير عن عجز الإرادة في تحقيق ما تريد.

عندها يصادر مفهومُ الواقعيّة جميعَ الإمكانيّات، لقاء إمكانيّة واحدة، تُفرض فرضاً: ألا وهي إمكانيّة التعايش، كما يقرّرها منطقُ القوّة.

ولمّا كان كلُّ مشروع هو إمكانيّات يُسعى لتحقيقها، فإنّ حشر الحلّ في إمكانيّة واحدة يعني انتهاءَ المشروع. ولمّا كان المشروعُ يعبّر عن حركة عامّة في المجتمع، تلتفُّ حولَهُ فئاتٌ وطبقاتٌ من شعب كامل مسلّحةٌ بمستقبل ذي أفق واسع فإنّ انتهاءه يعني انتهاءَ حركة هذا المجتمع بكلّ فئاته... في الوقت الذي لا يحتاج فيه القبولُ بالأمر الواقع إلاّ إلى جزء ضئيل من قوى المجتمع، يمتلك القدرة على اتّخاذ القرار، بدون الأخذ بعين الاعتبار مستقبلَ المجتمع ذاته!

ولكي يدلّل على هشاشة المشروع وطوباويّته، تتحدّث أيديولوجيا التعايش عن أنّه مشروع مرحلة لم يعد متطابقاً مع المرحلة الجديدة، أو منطق العصر. وهكذا تجري عمليّة إشاعة «المرحلة الجديدة» أو منطق «العصر» كمفهوم مترابط مع مفهوم الواقعيّة بالمعنى الذي أشرنا إليه. فماذا تعني المرحلة الجديدة أو منطق العصر، في إيديولوجيا التعايش؟

* * *

يبدو منطقُ «العصر» في إيديولوجيا التعايش منطقاً لحلّ النّزاعات سلميّاً ـ وهي فكرةٌ طرحها غورباتشوف في كتابه **البيريسترويكا** ـ ثمّ زوال الصراعات العالميّة التي كانت قائمة على أساس إيديولوجي. وإذا كانت المرحلة السّابقة حالت دون أن تحقّق الإمبرياليّةُ الأمريكيّة كلَّ ما تريده في بقاع العالم بفضل المواجهة السوفيتيّة، فإنّ المرحلة الراهنة ـ بعد زوال الاتّحاد السوفياتي ـ فسَحت المجال لأمريكا أن تحقّق ما كانت عاجزة عن تحقيقه. إذاً، فمنطق العصر هو، في حقيقة الأمر، القبول بما عجزت أمريكا عن تحقيقه سابقاً، بدعوى أنّ الحلّ هو في نهاية المطاف حلّ أمريكي بالضّرورة. ثمّ إنّ أمريكا هي الوحيدة ـ وفق منطق «المرحلة الجديدة» ـ القادرة على فرض حلّ قد لا يكون متطابقاً كلّيّة مع الحلّ الصهيوني، انسجاماً مع مصالحها في المشرق العربي. وبالتالي، فلابدّ من النّفاذ إلى «المرحلة الجديدة»، لاقتناص ما يمكن اقتناصُه، وفق عمليّة الاقتراب من التصوّر الأمريكي لمستقبل الشّرق هذا.

تفرض عمليّة الاقتراب من التصوّر الأمريكي لمستقبل الشرق العربي، على الجانب الفلسطيني، جملةً من الخطوات التي لابدّ منها ليغدو هذا الجانب جزءاً من عمليّة الحوار السّلمي. وأهمّ هذه الخطوات: الاعتراف المسبق بوجود دولة تدعى «إسرائيل»، والتخلّي عن الكفاح المسلّح ونبذه بوصفه إرهاباً ومقاومتُه إنْ وُجد.

والامتثال لهذين الشرطين هو امتثال إيديولوجي وعملي في الوقت نفسه: نظري، من حيث التخلّي عن المشروع؛ وعملي، من حيث التخلّي عن سبل تحقيقه.

ولمّا كان مشروع التحرير وسُبُل تحقّقه هي، بالأساس، مشروع أُمّة وطريقها، فإنّ فكرة الأُمّة تنزاح تحت اسم هويّة ضيّقة. ويجري التعامل مع المنطقة باسم هويّات، كي يُفسح المجال لهويّة نشازٍ، تقع على قدم المساواة، نظريّاً، مع «الهويّات» الأخرى. هنا يجري الحديث عن «شرق أوسط جديد»، يقيم القطيعة مع المشروع القومي العربي. وهكذا يجري إضافة مفهوم جديد استُخدم سابقاً، كاسم له دلالة جغرافيّة من قبل الغرب، لإعطائه دلالةً سياسيّة وثقافيّة قائمة على تعاون المتعدّد المختلف.

ولتقديم مفهوم «الشّرق الأوسط الجديد»، لابُدَّ من صبغه بطبقات أخلاقيّة، اجتماعيّة، اقتصاديّة، تقنيّة، إلخ.

بل قلْ إنَّ الخطاب الأخلاقي المستخدم اليوم ـ كنسيان الماضي، «وتوفير الدّماء»، و«السّعادة المنشودة» ـ إنّما هو خطاب يختصر كلَّ العدّة الأيديولوجيّة لفكرة التعايش التي يروَّج لها ويجري تحقيقُها بسرعة مذهلة.

يحوّل الخطاب الأخلاقي القضيّةَ الأساسيّة ـ احتلال فلسطين وطرد سكّانها ـ إلى مجموعة من المشكلات الجزئيّة: مشكلة الحدود؛ مشكلة الحياة؛ مشكلة اللاّجئين؛ مشكلة التقنيّة؛ مشكلة التجارة الحرّة؛ مشكلة التصنيع؛ مشكلة مواجهة العنف الأُصولي... إلخ. بهدف البحث عن نمط حياة جديد للمنطقة.

إنَّ كلّ ذلك يحتاج إلى التعاون ـ كأساس للتعايش.

عندها تكتمل دائرة المفاهيم، لتشكّل منظومة أيديولوجيّة، تسعى نحو إحداث تغيّر في الوعي، كي يسهل القبول بالأمر الواقع.

وهكذا، نجد أنَّ مفهوم التعايش يُفضي، بالضرورة، إلى جملة المفاهيم الأكثر تعيُّناً: الحوار، العقلانيّة، الواقعيّة، منطق العصر، الشرق الأوسط الجديد، نمط الحياة... مفاهيم تبرّر الحكم الذّاتي والاتّفاقات المنفردة والتّطبيع؛ إلخ.

* * *

يقف فكر المواجهة كنقيض يبدو، في هذه المرحلة من التّاريخ، عاجزاً عن إحداث تغيير في هذا الجدار الصّلب، الذي شيَّدتهُ إسرائيل والإمبرياليّة والدّولة القطريّة العربيّة.

لكنّه فكرٌ غير متجانس، من حيث تصوّراتُه للمستقبل وطريقةُ تحقيقها. ففكرة التحرير الكامل للتراب الوطني الفلسطيني، وهي فكرة نشأت منذ قيام الكيان العنصري الغريب في المنطقة، فكرة لا تتعيّن إلاَّ في جهاز مفهومي ينشأ: إمّا عن تصوّر عربي شامل للمواجهة (وهذا هو الذي جرى عبر سنوات طوال)؛ أو عن تصوّر إسلامي؛ أو عن تصوّر عربي ـ إسلامي. إنَّ سبيل تحقيق هذا المفهوم يصادر أيّة طريقة من شأنها الإقرار بوجود شرعي للكيان المومئ إليه. السَّبيل حسب هذا المفهوم هو: الكفاح والكفاح بصيغته المسلّحة، فقط.

لقد سأل أحدُ ضبّاط الثّورة الفلسطينيّة السّؤالَ التالي، أمام ندوة، حول مسألة المواجهة: «بعضُ التنظيمات تتحدث عن ضرورة المواجهة لما يجري الآن، طارحةً بالمقابل الحلَّ العادل والشّامل. وهذا يعني أنَّ الحلّ سيكون مع هذه الدّولة العنصريّة. إذاً، فإنَّ فكرة الحلّ الشامل أو العادل تنطوي بالضّرورة على الاعتراف بالدّولة اليهوديّة في فلسطين، أو الاعتراف بحق اليهود فيها. أليس في ذلك نفيٌ لحق الشّعب العربي الفلسطيني بكامل أرضه؟».

إنَّه لسؤال ينطوي على تماسك منطقي، لكنَّه يشير أيضاً إلى نمط من التفكير السياسي الموجود الذي يختلف عن الحلول التي تجري الآن لقاء حلٍّ أكثر عدالة؛ كقيام الدّولة الفلسطينيّة المستقلّة على جزء من أرض فلسطين، وحلّ عادل يتيح عودة للفلسطينيين الذين شرّدوا من وطنهم عام ١٩٤٨.

والحقيقة أنَّ بين فكرة التحرير الشّامل، وفكرة الحلّ العادل، اختلافاً واضحاً في الأهداف، واتفاقاً في الوسائل.

فباستطاعة «الجبهة الديمقراطيّة»، مثلاً، أن تسمّي عمليّة فدائيّة باسم نسور الدّولة المستقلّة، وأن تطرح «تصحيح شروط مدريد»؛ كما يمكن أن ترفض «الجبهة الشعبيّة» الحكمَ الذّاتي باسم «حقّ تقرير المصير» وإقامة دولة ذات سيادة، بوصفه حلاً عادلاً. وبهذا المعنى تضيق فكرةُ التّحرير في هذا الطّرف، عنها في الطّرف الإسلامي أو غيره.

إذاً، نحن أمام أنماط ثلاثة من التفكير والممارسة: نمط يقرّ بالأمر الواقع الرّاهن ويسعى إلى التعايش، وفق إرادة ما فوق وطنيّة؛ ونمط يرفض التعايش رفضاً راديكاليّاً ويسعى إلى التّحرير الكامل؛ ونمط يتوسَّط هذين الموقفين: تحرير غير كامل، وسلام بدون تعايش وبدون تطبيع.

فكر المواجهة لا يستطيع أن يتعامل مع مرحلة معيشةٍ بمفاهيم لا تأخذ المستقبل القابل للتوقّع بعين الاعتبار!

إنَّ تناسب القوى بين هذه التيّارات الثلاثة، تحدّده جملةُ عوامل داخليّة، عربيّة، وعالميّة.

وبكلمة أخرى، فإنَّ التناقض بين فكرة التعايش وأشكال تحقّقها العمليّة من جهة، وفكرة المواجهة وسبل إنجازها من جهة أخرى، ليس مجرّد تناقض بين أفكار بل بين قوى حيّة ذات استطالات عربيّة وعالميّة. وبالتالي، فإنَّ حلّ التناقض بين هذه الأنماط من التّفكير والممارسة ذو دلالة تاريخيّة.

ذلك أنَّ المواجهة تبدو، نظريّاً، بين هذه الأنماط الثلاثة والعدوّ من جهة، وبين هذه الأنماط مجتمعة من جهة ثانية.

ولمّا كان حقل المواجهة واقعاً متعيّناً ينطوي على قوى وحقائق

ودول، فإنَّ خيارات العمل لابدّ أن تكون محكومة به، والخيارات السياسيّة بدورها لا تنفصل عنها.

وبالتّالي، فالسؤال الأكثر صعوبة الذي يتطلّب إجابة عمليّة ونظريّة، هو: كيف يمكن أن يكون حلُّ التناقض بين تيّار المواجهة وتيّار التعايش؟

أقول «كيف يمكن أن يكون»، ولا أقول «كيف يجب أن يكون»؛ ذلك أنَّ الصّراع والكفاح لا يجديان إلاَّ في حقل الممكنات، كي يثمر العمل، في نهاية المطاف، نجاحاً.

إذا انطلقنا من هذه الأطروحة، صار لزاماً علينا أن نحاكم ما يجري وفق ما يكتنزه الواقع من ممكنات، بعضها يمتّ إلى الرّاهن، إلى المرحلة المعيشة، وبعضها رهن التوقّع الطويل الأمد.

وفكر المواجهة لا يستطيع أن يتعامل مع مرحلة معيشةٍ بمفاهيم لا تأخذ بعين الاعتبار المستقبلَ القابل للتوقّع. وبالتالي لا تكون مفاهيم فكر المواجهة متناقضة مع مفاهيم إيديولوجيا التعايش إلاَّ من حيث تحديدها إلى جانب مفاهيم أخرى تعدّ جزءاً من جهاز مفاهيمها.

فإذا كان فكرُ المواجهة يرفض مفهومَ التعايش، في مقابل مفهوم التحرير، فإنَّ مفهوم التحرير، كمفهوم مجرّد، يجب أن يتحدّد في إطار القوى القابلة لتلقّيه على أنَّه مفهوم يشير إلى واقعة محدّدة واضحة، تفرض نمطاً من السلوك مطابقاً.

عندها يفترض مفهوم التحرير: مفهومَ الأُمّة، والوطن، وحقّ تقرير المصير، والشّعب. وبالمقابل، فإنّ هذا المفهوم ذاته يتحدّد في مرحلة متعيّنة تاريخيّاً، لا يصادر مجموعةً من المفاهيم المتوسّطة التي تفرضها هذه المرحلة.

عندها يُطرح السّؤال: هل تنتمي فكرةُ الدّولة المستقلّة ذات السّيادة على جزء من فلسطين إلى فكرة المواجهة أم إلى أيديولوجيا التعايش؟

إنَّ الإجابة على هذا السّؤال غير ممكنة إلاَّ في إطار تصوّر شامل للقضيّة... وإلاَّ فباستطاعة الإسلامي المجاهد أن يتّهم اليسار بأنَّه جزء من حركة الذين يَدْعُون إلى التعايش.

كما يمكن لليساري الفلسطيني أن ينظر إلى فكرة التحرير الشّامل، في شروط الركود الرّاهنة، كنوعٍ من الأوتوبيا التي لا تساندها شروط الواقع المعيش عربيّاً، وعالميّاً... وبالتالي يعود، مرّة أخرى، إلى مفهوم الواقعيّة، ولكن بتحديد جديد، أقلّه أن يأخذ حقائق وعناصر المواجهة المستمرّة بعين الاعتبار.

أيديولوجيا التعايش تستند إلى دولة متسلّطة قويّة، وإلى أنظمة عربيّة تتّخذ القرار دون الاكتراث بالمزاج الشعبي العام؛ وأمّا قوى المواجهة فلا تستند إلاَّ إلى الثقافة التي تعتقد أنَّها حصن منيع!

المشكلة الرّاهنة، على ما أرى، أنَّ إيديولوجيا التعايش تستند إلى دولة عالميّة، متسلّطة، قويّة، وأنظمة قادرة على اتّخاذ القرار دون الاكتراث بالمزاج الشعبي العام. ولهذا فإنَّها تحقّق على الأرض وقائع لا يمكن تجاهلها، في الوقت الذي يفتقد فيه فكرُ المواجهة إلى مثل تلك القوى.

ولهذا تراه يعوِّل على حصنٍ يعتقد أنَّه منيع، ألا وهو حصن الثقافة، لأنَّها أكثر عناصر الواقع عناداً، وأقلّها تعرُّضاً للتغيّر السّريع. ومن هنا نفهم، أيضاً، المعنى القابع وراء عمليّة المواجهة الثقافيّة لحركة سياسيّة ماديّة، تنتج اتّفاقَ غزّة ـ أريحا.

لكنّ التعويل على مواجهة كهذه، فقط، أمرٌ قد ينتج أدباً وأبحاثاً وفلسفة تساعد مؤرِّخ الأفكار في المستقبل.